سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ
٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ
وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ
أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ
شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ
وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ
ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ
١٩ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ
تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ
أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ
خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ
بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٣٣ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥ وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣٧ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ
تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٠ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ
فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ
كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ
وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

بين يدي التّفسير

(١)

(يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على الكافرين الّذين لم يتفكّروا في أنفسهم وفي آثار الّذين أهلكهم الله تعالي بذنوبهم)

الآيات (١ ـ ١٠)

تبدأ سورة الرّوم المكيّة الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿الم﴾ ومن العلماء من ذهب إلى أنّها امتدادٌ للتّحدي بالقرآن الكريم، فهي تومىء إلى أنّ كلمات القرآن الكريم تتألّف من هذه الحروف الّتي تتألّف منها بدورها الكلمات الّتي تجرى على ألسنة العرب، ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْدِه. وتقرّر السّورة الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال قد قضت مشيئته أنّ ينهزم الرّوم، وهم أهل الكتاب، أمام الفرس المجوس الأمّيّين، وذلك في أدنى أرض الرّوم من فارس بالجزيرة، وأدنى أرض الرّوم من بلاد العرب بأذْرِعات وبُصْرَى.

وكذلك قضت مشيئة الله تعالى أنّ الرّوم من بعد انتصار فارس عليهم سوف ينتصرون على الفرس المجوس، في بضع سنين، بين الثّلاث إلى العشر. لله تعالى وحده لا شريك له الأمر من قبل انتصار الفرس ومن بعد انتصار الروم. ويوم ينتصر الرّوم أهل الكتاب على أهل فارس المجوس يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى للروم أهل الكتاب على المجوس، وبنصر الله تعالى المؤمنين على كفّار مكّة في غزوة بدر. كما يفرح المؤمنون لاحقاً بنصر الله تعالى المؤمنين على كلٍّ من الفرس والروم الّذين شاخوا وأفلسوا.

إنّ الله تعالى ينصر من يشاء ويخذل من يشاء، وهو العزيز في ملكه الرّحيم بعباده المؤمنين، ولكنّ أكثر الناس، وهم المشركون، لا يعلمون شيئاً من تلك المعاني السّامية.

إنّ المشركين، وفي مقدّمتهم كفّار مكة، يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا من

مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ ومنكحٍ وعملٍ دنيويٍّ وما إلى ذلك، وهم عن الآخرة والاستعداد لها والعمل من أجلها غافلون. أعطّل الكافرون عقولهم ولم يتفكّروا في أنفسهم وفي إيجادهم من العدم وفي قدرة الفعّال لما يريد على خلقهم من جديد وبعثهم وحسابهم وجزائهم. ألم يتفكّروا في السّماوات والأرض وما بينهما ويتبيّنوا أنّ الله سبحانه وتعالى ما خلق كلّ ذلك إلاّ بالعدل وإقامة الحقّ، وبأجلٍ مسمىً وموعدٍ مضروبٍ، تقوم فيه السّاعة، ويكون الحساب والثّواب والعقاب. إنّ كثيراً من النّاس رغم كلّ هذه الآيات البيّنات كافرون بلقاء ربّهم يوم القيامة.

أتبلّدت أحاسيس كفّار مكّة وهم يسيرون في الأرض ويمرّون ببقايا آثار القوم الّذين دمّر الله تعالى عليهم مساكنهم وقراهم، أعميت أبصارهم وبصائرهم فلم ينظروا بعيونهم وقلوبهم وعقولهم وبصائرهم كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم الّذين كانوا أشدّ منهم قوّةً وبطشا، وحرثوا الأرض وزرعوها، وبنوا المصانع وشيّدوها، بأكثر ممّا فعل كفّار مكة. لقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فكذّبوهم على غرار تكذيب كفّار مكّة محمداً ﷺ فأخذهم الله تعالى بذنوبهم، وتوشك أن تكون عاقبة كفّار مكّة مماثلة.

إنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليظلم النّاس فيأخذهم بغير ذنب، ولكنّهم كانوا يظلمون أنفسهم بالكفر والعناد والاستهزاء. لقد كانت عاقبة القوم الكافرين الغاية في السّوء في الأولى والآخرة لأنّهم كذّبوا بآيات الله تعالى البيّنات وكانوا بها يستهزئون ومنها يسخرون. لقد كان الجزاء من جنس العمل. وبعد إجمال الحديث عن يوم القيامة يأتي التّفصيل.

(٢)

(ثواب المؤمنين يوم القيامة وعقاب الكافرين فسبّحوا بحمد ربّكم الّذي إليه تُرْجَعون)

الآيات (١١ ـ ١٩)

الله سبحانه يبدأ الخلق ويبدعه على غير مثال سابق، ثمّ يعيده يوم القيامة، ثمّ إليه ترجعون أيّها النّاس بالبعث للحساب والجزاء. إنّ الآية الكريمة الأولى تُجْمِل ما تفصّله الآيات الكريمات بعد ذلك من وصفٍ لملابسات يوم القيامة ولما ينبغي على البشر أن يعملوه من صالح الأعمال في دنيا العمل ليوم الجزاء. إنّه في اليوم الّذي تقوم فيه السّاعة يسكت المجرمون ولا ينبسون ببنت شَفَة لانقطاع حجّتهم، ويستبدّ بهم الحزن، وييأسون من كلّ خير. ولم يكن لهم من شفعاء في ذلك الموقف العصيب من بين الآلهة المزعومة الّتي أشركوها مع الله تعالى في العبادة. بل إنّ هؤلاء التّابعين يكفرون بمتبوعيهم ويتبرّأون منهم كما كفروا بهم وتبرّءوا منهم وتنصّلوا من تبعاتهم. وبعد الحساب في يوم القيامة يتفرّق النّاس وينقسمون فريقين. فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات الّتي أرادوا بها وجه الله تعالى وأخذوا كتب أعمالهم بأيمانهم فإنّهم يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة الّتي يُسَرّون بما فيها من نعيمٍ مقيم. وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآيات الله تعالى وبلقاء الآخرةً وأخذوا كتب أعمالهم من وراء ظهورهم بشمائلهم فإنّهم في عذاب جهنّم الأليم يُحْضَرون. وإنّكم أيّها النّاس كي تزحزحوا من النّار وتدخلوا الجنّة عليكم أن تسبّحوا بحمد ربّكم عزّ وجلّ كما يسبّح بحمده كلّ من في السّماوات والأرض ولكنّكم لا تفقهون تسبيحهم.

إنّ عليكم أنّ تسبّحوا بحمد الله تعالى في كلّ الأوقات والأحوال، وبخاصة حينما تؤدّون الصّلوات مساءً في صلاتي المغرب والعشاء، وصباحاً في

صلاة الفجر، وهذه الصّلوات الثّلاث جهـريّة وتؤدّى في غياب الشّمس، وعشيّاً في صلاة العصر، وحين تظهرون وتؤدّون صلاة الـظّهر. وهاتان الصّلاتان سرّيّتان وتؤدّيان في ظهور الشّمس.

إنّ عليكم أنّ تؤمنوا وتعملوا الصّالحات كي تـثابوا يوم القيامة حينما تبعثون بعد موتكم أحيـاء وتخرجون من قبوركم وتحاسبون وتثـابون أو تعاقبون. إنّ إعادة الحياة إليكم يوم القيامة أمرٌ هيّنٌ على الله تعالى. وأنتم ينبغي أن تؤمنوا بالحياة بعد الموت وتعملوا ليوم الـدّين وتستدلّوا على البعث بالأدلّة الّـتي ترونها والّتي لا يأتي علـيها الحـصر من إخراج الله تـعالى الحـيّ من الميّـت كالإنسان مـن النّطـفة، والدّجاجة مـن البيضة، والنّبتـة من الحبّة، والشّجرة من الـنّواة، ومن إخراج الله تعالى الميّـت من الحيّ، كالنّطفة من الإنـسان، والبيضة من الدّجـاجة، والحبّة من النّبتـة، والنّواة من الشّجـرة. إنّ هذه كلّها أدلّة عـلى إخراج الله تعالى لـنا من قبورنا أحياء يوم القيامة.

(٣)
(من آيات الله تعالى الدّالّة على القدرة المطلقة على البدء والإعادة فأفردوا الله بالعبادة وعليكم بالجماعة)
الآيات (٢٠ ـ ٣٢)

ويستمرّ السّيـاق في ذكر المزيد من الأدلّة الدّالّة على القـدرة المطلقة للذّات العليّـة كي يؤمن الكافـرون بالبعث والحيـاة بعد الموت. إنّ من آيات الله تـعالى الدّالّة على قدرته المطـلقة أن خلَقَنا في هيئة آبينا آدم عـليه السلام من ترابٍ ثمّ إذا نحـن بشرٌ مـن ذكرٍ وأنثى نـنتشـر في أرض الله تعـالى الواسعـة من أجلٍ شـتّى الأغراض. إنّ واجب كلّ إنسـان أن يفكّر في أصله وفي إيجاد الله تـعالى له من أبوين وأن يتفكّر في نفسه ويتدبّر، فـكلّ شيءٍ فيه آيةٌ على أنّ الله تعالى هو القادر

على كلّ شيء، الفعّال لما يريد، الّذي إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون. ولمّا كان انتشارنا في أرض الله تعالى الواسعة ثمرة الزّواج، وما أجلّ نعمة الزّواج وأدلّها على قدرة الله تعالى المطلقة، فعن طريق الزّواج قامت الأسر والجماعات والقبائل والشّعوب، لذا كان حديث السّياق عن نعمة الزّواج عن طريق لفت الانتباه إلى نعمة الزّوجة الّتي خلقها الله تعالى من جنس الزّوج ليسكن إليها ويطمئنّ كما تسكن إليه وتطمئنّ. وقد جعل الله تعالى بين الزّوجين مودّةً ومحبّةً، رحمةً ورأفة. ولا تزداد بفضل الله تعالى المودّة والرّحمة بتقدّم السّنّ إلاّ ثباتاً ورسوخا إلى أنّ يلقيا الله تعالى. إنّ في ذلك لآيات بيّنات دالآت على قدرة الله تعالى المطلقة لقوم يتفكّرون في هذه المعاني العميقة الّتي من أقربها أنّ الزّوجة تقضي في غرفة زوجها أكثر مما تقضيه في بيت والديها، هذا إلى ما تقرّر من أنّ للزّوج منزلةً قد لا تكون للأب وللأخ. ومن آيات الله تعالى خلقُ السّماوات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق النّاس، واختلافُ ألسنتنا وألواننا، رغم انتسابنا إلى أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة أساساً. إنّ في ذلك لآيات بيّنات دالآت على قدرة الله تعالى لقومٍ أكرمهم الله تعالى بنعمة العلم الكسبيّ والوهبيّ. ما أجلّ التّناغم بين السّماوات والأرض، وبين النّاس رغم اختلاف ألسنة النّاس وألوانهم. ومن آيات الله تعالى البيّنات منامنا باللّيل أساساً وبالنّهار تبعاً، وابتغاؤنا من فضل الله تعالى بالنّهار أساساً وباللّيل تبعاً. ولّما كان المنام باللّيل أساساً منطلق الحديث عن هذه الآية البيّنة وكانت حاسّة السّمع تعمل في الظّلام بل تنشط، كان التّذييل مقرّراً أنّ في ذلك لآيات بيّنات لقومٍ يسمعون بآذانهم السّامعة حسّاً وبآذانهم الواعية معنىً. ومن آيات الله تعالى البيّنات أنّه عزّ وجلّ يرينا البرق الدّالّ على المطر خوفاً من المطر أحياناً وطمعاً فيه أحياناً أخرى كي نستعدّ ونأخذ حذرنا، وينزّل جلّ وعلا من السّماء ماءً فيحيي به الأرض بالنّبات بعدموتها بالجفاف. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً فيستدلّون بإحياء الأرض الميتة على إحياء الله تعالى لهم يوم القيامة، إذ ينبتون من الأرض كما ينبت الزّرع. ومن آياته عزّ وجلّ البيّنات أنّ تقوم السّماء والأرض بأمره، وأنّ تمسكهما القدرة الإلهيّة،

وأنّ تقومـا بالدّور المنوط بهـما، إلى أن ينفرط بـإذن الله تعالى عقد هـذا الكون وتقوم السّاعة. فإذا دعانا الله تعالى دعوةً للخروج من الأرض أحياء مرّةً أخرى إذا نحـن خارجون مـسبّحون بـحمد الله تـعالى طـائعون مذعـنون. إنّ كلّ مـن في السّماوات والأرض وما في السّماوات والأرض، في الأولـى والآخرة، قانتٌ لله تعالى خاضعٌ مطيع. وإنّ البشر طائعون لله تعالى طوعاً في حقّ المؤمنين كرهاً في حقّ غير المؤمنين.

والله تعالى الّذي كلٌّ له قانتون مطيـعون هو الّذي بدأ الخلق ثمّ يعيده، وهو أهون عليه من البدء في عُرْفكم واعتقادكم، ولكنّهما سواءٌ في حقّ الذّات العليّة، ولله تعالى المـثل الأعلى في السّمـاوات والأرض، فلا إله إلاّ هو، وليس كـمثله شيء، وهو اللّطيف الخبير، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

ومن أهمّ ما يـلاحظ على الآيات الكريمـات الجمع بين الصّفات المخـتلفة كالـزّوجين الـذّكر والأنثـى، والسّـماوات والأرض، والـلّيل والـنهّـار، والخوف والطمع، والحياة والموت، والبدء والإعادة، واختلاف الألسنة والألوان.

وبعد تقرير الـسّياق أن لله تعالى المثل الأعلى فـي السّماوات والأرض جاء ضرب المثل المؤكّد لمعنـى التّوحيد وأن الله تعالى العزيز الحكيم لـيس كمثله شيء. إنّ الله سبحانـه وتعالى ضرب للمـشركين مثلاً من أنـفسهم. هل لكم ممّـا ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم من شركاء لـكم فيما رزقكم الله تعالى من مالٍ وغيره فأنتم فيه على قـدم المساواة وتخافونهم أن يشاركوكم إيّاه كما تـخافون أمثالكم من الأحرار؟ ولمّا كان الجواب بالنّفي إذ لا يُسَوِّى الحرّ فيما رزقه الله تعالى بينه وبين ما ملكت يمينه، فإنّ العقل حينما يستعمل استعمالاً صحيحاً يأبى أن يُسَوَّى في العبادة بين الله تعالى وبين عبيده ومخلوقاته. وقد جاء التّذييل مبيّناً دور العقل الرّشيد في فهم ما يفصّله الله تعالى ويبيّنه من آيات بيّنات.

الحقيقـة أنّ المشركين الّذين ظلـموا العبادة فوضـعوها في غير موضـعها قد اتّبعوا أهواءهم بـغير علم. وحينما أصرّوا على الـضّلال زادهم الله ضلالاً، وليس لهؤلاء المشركين من ناصرين يصرفون العذاب عنهم أو يهوّنونه.

أمّا الطّريق الصّحيح الّذي ينبغي أنّ يسلـك فهو أن تبقى الفطرة كما خلقها الله تعالى وكما أراد لها، وأن تتجسّد توحيداً لله تـعالى، وتطبيقاً لتعاليم الإسلام، بالانابة إلى الله تعالي بفعل الأوامر واجتناب النّواهي، وتقوى لله تعالى في السّرّ والعلن، وإقامة الـصّلاة وسائر الأركان ابتداءً بالشّهادتين، والابـتعاد عن كلّ صور الشّرك، والاندماج في جماعة المسلمين أهل السّنّة والجماعة، والابتعاد عن الشّيع والأحزاب الّذيـن تفرّقت بهـم السّبل عن سبـيل الله تعالى الحـقّ، ودين الإسلام الصّدق.

(٤)

(المشركون يصرّون على شركهم وكفران النّعم فيخزيهم الله تعالى وينصر المؤمنين عليهم)

الآيات (٣٣ ـ ٤٧)

على الرّغم من كـلّ هذه الآيات البيّنات الدّالاّت على القدرة المـطلقة للذّات العَليّة يصرّ المشركون على شركهم وعـلى كفران نعم الله تعالى عليهم. إنّ النّاس إذا مسّهم ضرٌ من مرضٍ أو خوفٍ أو جدبٍ ومـا إلى ذلك دعوا ربّهم جلّ وعلا وحده لا شريك له، راجعـين إليه عاملين بما يرضيه عزّ وجـل. ثمّ إذا أذاقهم منه رحمةً من صحّة أو أمـنٍ أو خصب وما إلى ذلك، إذا فريقٌ منهم يـشركون بربّهم عزّ وجلّ في العبادة الآلهة العاجزة المقهورة. ويـقرنون إلى الكفر كفران النّعم الّتي آتاهم الله تعالى إياها، فليتمتّعوا إلى حين، فـسوف يعلمون عاقبتهم الوخيمة عن قريب. أأشرك المشركون لأنّ الله تعالى أنزل عليـهم كتاباً يدعوهم إلى الشّرك فهو يتكلّم بما كـانوا يشركون ويقرّهم عليـه. والمراد بالسّؤال النّفي بطبـيعة الحال، فالله تعالى أنـزل كتبه وأرسل رسلـه بالتّوحيد. والله تـعالى إذا أذاق النّاس رحمـةً منه

فرحوا بها. وما أكثر أنواع تلك الرّحمة وأكثر مجيئها. وإن تصبهم سيّئة بسبب ما اقترفت أيديهم من سيّئات، وما أقلّ أنواع تلك السّيّئة وأقلّ مجيئها، إذا هم يقنطون من رحمة الله تعالى وييأسون من رَوْحه. ومن مظاهر الرّحمة سعة الرّزق، ومن مظاهر السّيّئة ضيق الرّزق. والله تعالى يختبر عباده بكلّ ذلك. أعميت بصائر النّاس ولم يروا بقلوبهم وعقولهم وبصائرهم أنّ الله تعالى يوسّع الرّزق لمن يشاء اختباراً، ويضيّق الرّزق لمن يشاء ابتلاءً، وليس لكرامة الأوّل على الله تعالى ولهوان الآخر. إنّ في ذلك لآيات بيّنات لقوم يؤمنون حقّاً وصدقاً لأنّهم هم المستفيدون. فآت أيّها المؤمن ذا القربى حقّه الّذي جعله الله تعالى له في المال الّذي وهبك الله تعالى إيّاه وجعلك مستخلَفاً فيه، وآت المسكين حقّه وابن السّبيل وسائر المستحقّين للزّكاة وللصدقة. إنّ ذلك الإيتاء خيرٌ للّذين يريدون بالزّكاة والصّدقة وجه الله تعالى وثوابه. وأولئك هم المفلحون الفائزون على الحقيقة.

وما آتيتم أيّها النّاس من ربـاً ليربو في أموال النّاس ويزيد، وما آتيتم من هديةٍ تريدون في المقابل أكبر منها من المُهْدَى إليه، فلا يربو عند الله تعالى ولا يزكو ذلك المال ولا يزيد بل يمحقه الله تعالى ويذهب ببركته. وما آتيتم أيها النّاس من زكاةٍ وصدقةٍ تريدون وجه الله تعالى فأولئك هم المضعفون الّذين يتضاعف ثوابهم وحسناتهم فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فأكثر.

ولمّا كان محور السّورة الكريمة الحياة بعد الموت والبعث والحساب والجزاء كان من السّياق تأكيدٌ لهذه المعاني. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي خلقكم أيّها المشركون ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم مستقبلاً ثمّ يحييكم يوم القيامة. هل من شركائكم من الآلهة المزعومة من يفعل من ذلكم من شيء؟ ولمّا كانت الآلهة المزعومة لا تستطيع أن تفعل شيئاً فإنّ السّياق ينزّه الله عزّ وجلّ ويقرّر علوّه علوّاً كبيراً وعظمته وسموّه عمّا ألحقه به المشركون ممّا لا يليق بعلوّه وعظمته وسموّه.

ولمّا كان الشّرك أكبر مظاهر الفساد وكان للفساد مظاهره الأخرى المنتشرة في الأرض رغم كلّ الآيات والنّذر فإنّ السّياق يقرّر كلّ ذلك ويهدّد المفسدين بالانتقام. لقد ظهر الفساد في البرّ في هيئة البوادي والمدن الدّاخليّة، وفي البحرّ

في هيئـة المدن الواقعة علـى الأنهار والبحار، بسـبب ما كسبت أيـدى النّاس من ذنوب واقترفت من آثـام. حدث كلّ ذلك ليذيق الله تعالى المفسـدين عقاب بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى بترك المعاصي وعمل الطّاعات.

ولمّا كان مـن آيات الله تعالـى الدّالّة علـى قدرته المطـلقة جلّ وعـلا إهلاك الكافرين السّابقين الأكثر عدداً وعدّةً وقوّةً من كفّار مكة، فإنّ السّياق يلفت الانتباه إلى هذه الحقـيقة فيأمر المصطـفى ﷺ أساساً، وكلّ فردٍ من أفراد الأمّـة المحمّديّة تبعاً، بأنّ يأمر المشـركين بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عـاقبة السّابقين الّذين كـان أكثرهم مشـركين. فوجّه وجهـك يا محمّـد ويا أيّها الإنسـان لدين الإسلام القيّـم من قبل أن يأتيك أيّهـا الإنسان يومُ القيامة الّـذي لا مردّ له من الله تعالى الّذي يستطيع وحده دون سواه ردّه. وإنّـما لا يُرَدُّ يوم القيامة لأنّ الله تعالى لا يريد ردّه بل يريـد مجيئه. وفي يوم القيـامة يكون النّاس بعد الحـساب فريقين، فريق الكافـرين الّذين ينالون عقاب كفـرهم، وفريق المؤمنين الّذين عـبّدوا الطّريق الّذي سلكوه إلى جنّـات النّعيم. وفي ذلك اليوم يجزى الله تعـالى المؤمنين الّذين عملوا الصّالحات ثواب أعـمالهم ويزيدهم من قضله. أمّا الكافـرون فإنّه يعذّبهم ويخزيهم ويطردهم من رحمته.

ويتحـوّل السّياق إلـى ذكر بعض آيـات الله تعالى الّـتي يتقلّب في نِعَـمِها المشـركون. إنّ من آيات الله تـعالى أنّـه عزّ وجلّ يرسـل الرّياح مـبشّرات بالمـطر القادم، وليذيقنا الله تعالى من رحمته المتمثّلة في الغيث، ولتجرى الفلك في البحر بأمره، ولنبتغي من فضل الله تعالى بالصّيـد في البحر وبالتّجارة، ولعلّنا نشكر الله تعالى نعمه وآلاءه. ومن البيّن أنّ ثمّة إشاراتٍ ضمنيّةً لحرفتي الرّعي والزّراعة في البرّ، وحرفتي الصّيد والتّجارة في البحر.

ولمّا كان المـشركون مصـرّين على شـركهم وعنـادهم رغم كلّ هـذه الآيات البيّنات الدّالاّت علـى قدرة الله تعالى فإنّ السّياق يسلّي المـصطفى ﷺ والمؤمنين. لقد أرسـل الله تعالى من قـبلك يا محـمّد رسلاً إلى قـومهم فجاءوهـم بالآيات البيّنـات كما جئتهـم يا محمّد فأصرّوا عـلى شركهم وعنادهـم فانتقمنـا من القوم

المجرمين. إنّ لسان الحال يقول: وكذلك سوف ننصرك يا محمّد على قومك الكافرين فاصبر، وإنّ لسان المقال يقول للمؤمنين من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم وللمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكان: ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾ وفي مقدّمة المؤمنين الّذين نصرهم الله تعالى إمامهم، المصطفى ﷺ، خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين.

(٥)

(الله تعالى يحيي الأرض الميتة، ويبعث الموتى يوم القيامة، وينصر المؤمنين في الأولى والآخرة، ويخزى الكافرين)

الآيات (٤٨ ـ ٦٠)

تدور آيات القسم الأخير من السّورة الكريمة على محور البعث يوم القيامة، وتقديم الألّة عليه، ووجوب الإيمان به، والعمل من أجله، وحثّ المصطفى ﷺ على الصّبر على تكذيب المنكرين للبعث، والوعد بالنّصر على الأعداء.

يقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يرسل الرّياح فتهيج سحاباً فيبسطه عزّ وجلّ في السّماء كيف يشاء طولاً وقصراً وكثافةً تارة، ويجعله قطعاً متفرّقةً تارةً أخرى، فترى أيّها الإنسان المطر يخرج من أعماقه. فإذا أصاب عزّ وجلّ بالمطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون بالمطر ويفرحون. وإنّهم كانوا من قبل أن ينزّل عليهم ومن قبل المطر قد استبدّ بهم اليأس فهم حزينون ساكتون مطرقون.

فانظر أيّها الإنسان إلى آثار رحمة الله تعالى في هيئة المطر كيف يحيى الله تعالى الأرض بالماء والزّرع بعد موتها بالجفاف والجدب. إنّ ذلك الّذي أحياها هو الله تعالى الّذي يحيي الموتى يوم القيامة، وهو عزّ وجلّ على كلّ شيءٍ قدير.

ولئن أرسل الله تعالى على الزّرع ريحاً ضارّةً بالنّبات فرأى النّاس زرعهم

مصفراً بعد خضرة، ذابلاً بعد نَضْرة، لظلّوا من بعد اصفرار النّبات يكفرون نعم الله تعالى عليهم بالمطر والنّبات.

فإنّك يا محمّد عليك البلاغ وحده، وليس في مقدورك ولست مطالباً بأن تسمعهم سماع قبول أو تحملهم على قبول الهداية، فإنّ مَثَل الواحد منهم في عدم فهمه لما يسمع وعدم وعيه مثل الميّت ساكن القبر، ومثل الأصمّ الّذي لا يسمع أصلاً، وإنّ مثله في عدم الاهتداء بما يرى وعدم مفارقة الضّلال مثل الأعمى الّذي لا يرى أصلاً. إنّ الميّت يبعثه الله تعالى يوم القيامة، أمّا الكافر فيظلّ في الدّنيا على كفره أي على موته المعنويّ، فالكافر الميّت معنويّاً هو الميّت حقّا، لأنّه وإن سمع بأذنه، فإنّه لا يسمع بأذنه الواعية وقلبه الشّهيد. وكذلك الكافر ليس لديه نور البصيرة والفؤاد، فهو الأعمى حقّاً، كما أنّه هوالأصمّ حقّا. وهكذا نكون بصدد أنواعٍ من الأموات، الأرض الميتة، والإنسان الميّت حسّاً، والكافر الميّت معنًى.

ويتحوّل السّياق إلى الحديث عن المراحل الّتي يمرّ بها الإنسان حتّى تسلمه المرحلة الأخيرة بإذن الله تعالى إلى الموت. فالله تعالى خلقنا من ضعف الطّفولة والنّشأة، ثمّ جعل من بعد ذلك الضّعف قوّة الشّبيبة والكمال وبلوغ الأشدّ، ثمّ جعل من بعد تلك القوّة ضعف الكهولة والهَرَم، والدّليل على ذلك الضّعف اشتعال الرّأس شيبا. إنّ الله تعالى يخلق ما يشاء وهو العليم القدير.

ولا يكتفي منكرو البعث بسوء التّدبير في الدّنيا بل يضيفون يوم القيامة سوءاً إلى سوء. إنّ السّاعة حينما تقوم ويحيي الله تعالى الموتى بقسم المجرمون أنّهم ما لبثوا في الدّنيا غير ساعة لذلك لم يكن الوقت كافياً للتّفكّر في البعث، وهذا هو سوء التّدبير، أو أنّهم ما لبثوا في القبور غير ساعة، وهذا هو سوء التّقدير. هكذا يُصْرَف الكافرون عن حسن التّدبير أو التّقدير في الآخرة كما صرفوا عن حسن التّدبير في الدّنيا.

ورداً على ادّعاء الكافرين يقول الّذين آتاهم الله تعالى العلم الكسبّي والوهبيّ والإيمان: لقد لبثتم فيما كتب الله تعالي في سابق علمه منذ أن كنتم في

عالم الذرّ إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم لا تعلمون وقوعه ولهذا أنكرتموه. ففي ذلك اليوم لا ينفع المشركين اعتذارهم ولا يُطْلَب منهم الرّجوع إلى عمل ما يرضى الله تعالى، لأنّ الآخرة دار الجزاء، وليست دار العمل.

وتختم السّورة الكريمة بتسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين. فلقد ضرب الله تعالى في هذا القرآن الكريم من كلّ مثلٍ كي يعقله الناس. ولئن جئت يا محمّد المشركين بآية حسّيّة ليقولنّ ما أنتم أيّها المؤمنون إلاّ أصحاب أباطيل وأكاذيب. هكذا يطبع الله تعالي ويختم على قلوب الّذين لا يعلمون التّوحيد فلا يتسلّل إليها نور الهداية ولا يخرج منها ظلام الكفر.

فاصبر يا محمّد على تبليغ الرّسالة وتأدية الأمانة والنّصح للأمة، إنّ وعد الله تعالى حقٌّ بنصرك وبنصر المؤمنين. ولا يحملّنك الّذين لا يوقنون بالبعث على أن يضيق صدرك، ويطيش حِلْمُك، وينفد صبرك. إنّ عليك أن تستمّر في أداء مهمّتك وعبادة ربّك حتّى يأتيك اليقين وتلحق بالرّفيق الأعلى. ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد.

التّفسير

(١)

(يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على الكافرين الّذين لم يتفكّروا في أنفسهم وفي آثار الّذين أهلكهم الله تعالى بذنوبهم)

الآيات (١ - ١٠)

الٓمٓ ﴿١﴾

بدأت سورة الرّوم المكيّة الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿الـم﴾ ومن العلماء من قال بشأن هذه الحروف: الله تعالى أعلم بمراده بذلك. ومن العلماء من ذهب إلى أنّ الابتداء بالحروف امتدادٌ للتّحدّي بهذا الكتاب العزيز. إنّ في هذه الحروف إيماءً إلى أنّ كلمات هذا الكتاب العزيز تتألفّ من هذه الحروف الّتي تتألّف منها كلمات العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم، والّذين بلغوا الغاية في الفصاحة والبيان، ولكنّ نظم القرآن الكريم نسيجُ وَحْدِه.

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾
وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

غُلِبت الرّوم : غَلَبَتْ فارس الروم(١) والرّوم أهل كتاب. والفرس مجوس(٢) ويقال للرّوم بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان يعبدون الكواكب السّيارة السّبعة. وكانوا على دينهم إلى بعد مبعث المسيح عليه السّلام بنحوٍ من ثلاثمائة سنة. وكان من مَلَكَ الشّام مع الجزيرة منهم يقال له قيصر. فكان أوّل من دخل في دين النّصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس(٣) وهرقل اسمُ لمن ملك الرّوم(٤) وكسرى اسمٌ لمن ملك فارس من السّاسانيّين(٥) وكان سابور ملك الفرس قد غلب على بلاد الشّام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الرّوم. واضطرّ هرقل ملك الرّوم حتّى أجاه إلى القسطنطينيّة(٦) وحاصره فيها مدّةً طويلة

---

(١) تفسيرالطّبرى ٢١/ ١١.

(٢) انظر هنا تفسير الطّبري ٢١/ ١٣ وأسباب النّزول للواحدى ٣٩٨

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٨

(٤) المعجم الوسيط : «هرقل» ولسان العرب : «هرقل»

(٥) انظر الموسوعة العربيّة الميسّرة ١٤٦٣

(٦)استانبول أو إسلام بول حالياً

ثمّ عادت الدّولة لهرقل(١) .

في أدنى الأرض: أدنى أقرب، وهو أفعل من الدّنوّ والقرب(٢) أي أقرب بلاد الرّوم من فارس(٣) فترك ذكر فارس استغناءً بدلالة ما ظهر من قوله : ﴿في أدنى الأرض﴾ عليه منه(٤) وكان ذلك في الجزيرة(٥) وهي أقرب أراضي الشّام لفارس. وقيل كان ذلك بأذرعات وبُصْرَى(٦) وأذرِعات بلدٌ في أطراف الشّام، يجاور أرض البلقاء وعمّان(٧) وبُصْرى، بالضّمّ والقصر، من أعمال دمشق، وهي قصبة حَوْران(٨) وهذا المكان طرف بلاد الشّام ممّا يلي بلاد الحجاز(٩) .

وهم من بعد غلبهم سيغلبون : والرّوم من بعد غلبة فارس إيّاهم سيغلبون فارس. وقوله : ﴿من بعد غلبهم﴾ مصدر، من قول القائل: غلبته غَلَبَةً، فحذف الهاء من الغلبة وقيل: ﴿من بعد غلبهم﴾ ولم يقل من بعد غلبتهم للإضافة، كما حذفت من قوله: وإقام الصّلاة للإضافة، وإنّما الكلام : وإقامة الصّلاة(١٠) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٤.

(٢) تفسير الطبرى ٢١/ ١٥

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٠.

(٤) تفسير الطّبري ٢١/ ١٥.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٠.

(٦) انظر تفسير الطّبري ٢١/ ١٣ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٧و ٣١٠ وأسباب النّزول ٣٩٨

(٧) معجم البلدان : «أذرِعات» ١/ ١٣٠ وأذرعات بكسر الرّاء

(٨) معجم البلدان : «بُصْرَى» ١/ ٤٤١ وبصرى بضمّ الباء.

(٩) تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٠

(١٠) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٥

يقال : غَلَبْتُه غَلْباً وغَلَبَةَ وغَلَباً فأنا غالب [1] وغلبه يغلِبه غَلْباً وغَلَباً، وهي أفصح، وغَلَبَةً ومَغْلَباً ومغلبة[2].

في بضع سنين: البضع ما بين الثّلاث إلى التّسع أو العشر[3] لله الأمر من قبل ومن بعد: لله الأمر من قبل دَوْلة فارس على الروم، ومن بعد دَوْلة الرّوم على فارس[4].

والدَّولة بفتح الدّال: الاستيلاء والغَلَبة[5].

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله : ويوم يغلب الرّوم فارس يفرح المؤمنون بالله ورسولهً بنصر الله إيّاهم على المشركين، ونُصرة الروم على فارس[6] قيل يفرح المؤمنون بنصرهم على المشركين في بدر[7] فقد علموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبريل بذلك فيه، مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه[8] وقد كانت نُصُرة الرّوم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عبّاس والثّوريّ والسّدّيّ وغيرهم. وقدً ورد في الحديثً الّذيً رواه التّرمذيّ وابن جرير وابن أبي حاتم والبزّار من حديث الأعمش عن عطيّة عن أبى سعيد قال : لمّا كان يوم بدر ظهرت الرّوم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله : ﴿ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرّحيم﴾.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غلب» ٢/ ٤٧

(٢) انظر لسان العرب : «غلب»

(٣) انظر الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني : «بضع» ١/ ٦٤ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٦ وتفسير الطّبرى ٢١/ ١٢ و١٣

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٦

(٥) المعجم الوسيط: «دول» وانظر لسان العرب : «دول»

(٦) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٢

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٥ وأسباب النّزول ٣٩٩

(٨) الجلالين

وقال آخرون : بل كان نُصـرة الرّوم على فارس عام الحديبية. قـاله عكرمة والزّهريّ وقتادة وغيرهم(١).

وعدالله : وعد مفـعول مطلق لفـعلٍ محذوف مؤكّد لـمضمون الجملة قـبله منصوب(٢) فكأنّه قال: وعد الله ذلك المؤمنين وعداً(٣).

ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون : ولكنّ أكثر قريش لا يعلمون أنّ ذلك كذلك وأنّه لا يجوز أنّ يكون في وعد الله إخلاف(٤).

يعلمون ظـاهراً من الحياة الدّنيا: يعـلم هؤلاء المكذّبون ظاهراً مـن حياتهم الدّنـيا وتـدبير مـعايـشهم فـيهـا وما يـصلحـهم(٥) ومـتى يزرعـون ويغـرسون ويحصُدون(٦).

وهم عن الآخرة هم غافلون : وهم عن أمر آخرتهم وما لهم فيه النّجاة من عقاب الله هنالك غافلون لا يفكّرون فيه(٧).

سبب النّزول

يتـبيّن من الـوقوف على سـبب نزول الآيات الـكريمات أنّ الحروب كـانت سجالاً بين الرّوم وهم أهل كتاب، وبين الفرس وهم مجوس. وكان المصطفى ﷺ وأصحابه رضـوان الله تعالى عليـهم يحبّون أنّ ينـتصر الرّوم لأنّهم أهـل كتاب، وكان مشركو مكّة يحبّون أنّ ينتصر الفرس المجوس الأمّيّون. وحينما انتصر الفرس على الروم فـي أدنى أرض الروم إلى فارس بالجزيرة وأدنـى أرض الرّوم إلى بلاد

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٠ و٣١١ وانظر تفسير الطّبرى ٢١/ ١٢ و١٤

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٥٢

(٣) تفسير الطّبري ٢١/ ١٦

(٤) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٦

(٥) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٦

(٦) انظر تفسير الطّبرى ٢١/ ١٦

(٧) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٦

العرب بأذرِعات وبُصْرَى، فقد أرغم الفرس هرقل على أنّ يلجأ إلى القسطنطينية، حينما انتصر الفرس على الرّوم فرح مشركو مكّة وقالوا لأبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه وللمسلمين: سوف ننتصر عليكم وأنتم أهل كتاب، كما انتصر الفرس الأمّيّون على الروم وهم أهل كتاب. أبلغ أبو بكر رضي الله تعالى عنه النّبيّ ﷺ بقول المشركين فأخبره عليه الصّلاة والسلام بأنّ الرّوم أهل الكتاب سوف يغلبون باذن الله تعالى الفرس المجوس في بضع سنين. ويقال إنّ الآيات الكريمات نزلت آنذاك.
ويقال كذلك إنّ الآيات الكريمات نزلت بعد انتصار الرّوم وإنّ النّبيّ ﷺ قال لأبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه ما أوحى الله تعالى به إليه قبل نزول الآيات الكريمات.
بادر أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى إخبار المشركين بنصر الله تعالى الرّوم في بضع سنين، وراهنوه على عددٍ من الإبل يدفعها الخاسر من الفريقين، وكان ذلك قبل تحريم الرّهان. ولمّا كان البِضع بين الثّلاث إلى التّسع أو العشر فقد تمّ الرّهان على أنّ تنتصر الرّوم خلال ستّ سنوات، ولم يكن عليه الصّلاة والسلام على علمٍ بذلك الرّهان. مضت السّنوات السّتّ ولم ينتصر الرّوم وطلب المشركون من أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه أنّ يعطيهم ما يستحقّون فأعلم النّبيّ ﷺ بما حدث وبأنّه إنّما راهن تصديقاً لله تعالى ولرسوله ﷺ فطلب النّبيّ ﷺ من أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه أنّ يزيد في الأجل سنتين(1) وأن يزيد في الرّهن(2) ففعل. وقبل أن ينتهي الأجل انتصر الرّوم وكسب أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه الرّهن الّذي تصدق به بأمر النّبيّ ﷺ. ونزلت الآيات الكريمات(3).

تقرّر الآيات الكريمات أنّ الرّوم وهم أهل كتاب، قد غلبهم، بإذن الله تعالى، الفرسُ المجوس، في أدنى أرض الروم لفارس بالجزيرة، وأدنى أرض الروم لبلاد العرب بأذرِعات وبُصْرَى. والرّوم من بعد غَلَبَةِ فارس لهم سيغلبون، بإذن الله تعالى فارس، في بضع سنين، بين الثّلاث والعشر. وقد كان ذلك بإذن الله

(1) تفسيرابن كثير ٦/ ٣٠٥

(2) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٧

(3) انظر هنا ـ مثلاً ـ أسباب النّزول ٣٩٨ وتفسير الطّبري ٢١/ ١٢ـ١٥ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٤ـ٣١٠

تعالى في السّنـة التّاسعة. لله تعالى الأمر من قبل انتـصار فارس على الروم، ومن بعد انتصار الـرّوم على فارس. ويوم ينتصر الروم وهم أهل كـتاب، على الفرس المجوس، يـفرح المؤمـنون بنـصر الله تعـالى الرّوم أهـل الكتـاب، على الـفرس المجوس، وبنصر الله تعالـى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ علـى المشركين في غزوة بدر. ينصر الله تعالى من يشاء، فما النّصر إلاّ منه عزّ وجل، ويخذل من يشاء، وهو جلّ وعلا العزيز فـي ملكه الرّحيم بالمؤمنين. وعد الله تعالـى بنصر المؤمنين وعداً. والله تـعالى لا يخـلف وعده، ولكـنّ أكثر الـناس، وهـم المشـركون، لا يعلمـون أنّ الله تعالى ينصر جـنده المؤمنين، ولا يعلـمون الغاية الّتي خـلقهم الله تعالى من أجلها، وهي إفراده عزّ وجلّ بالعبادة.

إنّ المشركـين يعلمون ظاهـراً من الحياة الدّنـيا، وهو الجانب المادّيّ الـقريب التّناول من مأكـلٍ ومشربٍ وملبسٍ ومنكحٍ ومسكنٍ وعـملٍ وزرعٍ وضرعٍ وبناءٍ وما إلى ذلك. وهم عن الآخرة والأعمـال الصّالحة الّتي ينبغي لهم أن يـقدّموها دليلاً على اعتناق الإيمان ونبذ الشّرك غافلون لاهون.

ومن ألطف ما يلفت الانتباه في الآيات الكريمات ظاهرة تلاؤم الأصوات في الآيات الكريمات وفي صـدورها. ويبدو هذا التّناغم الصّوتـيّ في الآيات الكريمات السّتّ الأُوَل. وإليك بيان ذلك:

- ﴿الم﴾
- ﴿غُلبت الروم...﴾
- ﴿في أدنى الأرض...﴾
- ﴿في بضع سنين...﴾
- ﴿بنصر الله...﴾
- ﴿وعد الله...﴾

وممّا يعمّق مـن ظاهرة تلاؤم الأصوات هذه ميل جزئيّـات الآيات الكريمات حتّـى نهاية الآيـة الكريمـة السّادسة إلـى القِصَر وعـدم الاتّساع كـثيراً في حـجم الجزئيّات وراء ذلك.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى
أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

إلاّ بالحقّ: إلاّ بالعدل وإقامة الحقّ(١)

وأجلٍ مسمّى: وبأجلٍ مؤقّت مسمّى، إذا بلغت ذلك الوقت أفنى ذلك كلّه، وبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات، وبرزوا لله الواحد القهّار(٢).

وأثاروا الأرض : حرثوها(٣)

فما كان الله ليظلمهم: الفاء استئنافيّة(٤) بإهلاكهم بغير جُرْم(٥).

ثم كان عاقبةَ الّذين أساءوا السُّوءى: عاقبة : خبر كان منصوب مقدّم .

---

(١) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٧

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٧

(٣) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٧و١٨

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٥٤

(٥) الجلالين

السّوءى: اسم كـان مؤخّر مرفوع، وعلامة الـرّفع الضّمّة المقـدّرة على الألف(١)
السّوءى: يعنـى الخَلّة الّتي هي أسوأ من فعـلهم. أمّا في الدّنيا فـالبوار والهلاك. وأما في الآخرة فـالنّار لا يخرجون مـنها ولا هم يستـعتبون(٢) والسّوءى تـأنيث الأسوأ الأقبح(٣) وعُـبِّر عن كلّ ما يَقْبُح بـالسُّوءى، ولذلك قوبل بالحُسْنى في قوله تعالى(٤) : ﴿لّلذين أحسنـوا الحُسْنى وزيادة﴾(٥). والسّوءى مؤنّث الأسوأ، اسم تفضيل من ساء الثّلاثيّ، وزنه فُعْلى بضمٍّ فسكون(٦).

أن كذّبوا: أن حرف مصدريّ. والمصدر المـؤوّل: ﴿أنّ كذّبوا﴾ في محلّ جرٍّ بحرف جـرّ محذوف هو اللاّم أو الـباء متعلّـق بعاقبة(٧) أي لأن كـذّبوا أو بأنّ كذّبوا(٨).

بشأنّ كـفّار مكّة الّـذين يعلمـون ظاهراً من الحيـاة الدّنيا وهـم عن الآخرة غافلون ولاهون يسأل السّـياق في إنكار: أعطّلوا عقولهم ولم يتـفكّروا في أنفسهم ولم يتبيّـنوا أنّ الله تعالى الّذي أوجدهم من الـعدم وخلقهم على غيـر مثالٍ سابقٍ قادرٌ على أن يعيدهم يوم القيامة خلقاً جديدا. إنّ النّوعين من الخلق سواءٌ عند الله تعالـى، ومع ذلك ففي عُـرْف البشر أنّ إعادة صـنع الشّيء أهون مـن إيجاده أوّل مرّة. إن العجب لا يكاد ينقضي من هؤلاء الّذين عطّـلوا عقولهم حينما يستبعدون البعث والنّشور وما يترتّب عليهما من الحساب والجزاء.

ولمّا كان خلق السّـماوات والأرض أكبر من خلق النّاس فإنّ الـسّياق يتحوّل إلى هذا الأكبر ويستدلّ بخلق الله تعالى له على خلق الأصغر منه. إنّ السّياق يقرّر

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٥٦

(٢) تفسير الطّبرى ٢١/ ١٨

(٣) الجلالين

(٤) سورة يونس ٢٦

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سوأ» ١/ ٣٣٣

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٥٦

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٥٦

(٨) انظر تفسير الطّبرى ٢١/ ١٨ والجلالين

أنّ الله سبحانه وتعالى ما خلق السّماوات والأرض وما بينهما إلاّ بالعدل وإقامة الحقّ، وبأجلٍ مؤقّت وموعدٍ معيّن إذا جاء قامت السّاعة وبدّلت الأرض غير الأرض والسّماوات وكان الحساب والجزاء، الثّواب أو العقاب. وعلى الرّغم من كلّ هذه الأدلّة والبراهين فإنّ كثيراً من النّاس، وفي مقدّمتهم كفّار مكة، كافرون بلقاء الله تعالى ويعملون لدنياهم وهم عن الآخرة غافلون.

وأمام إصرار الكافرين على الاستكبار والعناد يستمرّ السّياق في سؤاله الإنكاري ويتحوّل إلى الحديث عن الأمم السّابقة الّتي كانت أقوى من كفّار مكّة وأشدّ بطشاً فأخذها الله تعالى بعذابه الأليم وبطشه الشديد. أعميت أبصار كفّار مكّة وبصائرهم وهم يمرّون في رحلتي الشّتاء والصّيف وغيرهما على آثار الأقوام الّذين أهلكهم الله تعالى فلم يروا كيف كان مصير أولئك المكذّبن السّابقين الّذين دمّر الله تعالى عليهم مساكنهم تدميرا. لقد كان أولئك أشدّ من كفّار مكّة قوّة، وأكثر أموالاً وأولادا، وأثاروا الأرض وحرثوها وزرعوها وغرسوها وعمروها بأكثر من كفّار مكة. لقد جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنات فكفروا وأصرّوا على الكفر والعناد والاستكبار فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم. إنّ الله تعالى ما كان ليظلمهم بأخذهم دون ذنب ولكنّهم كانوا يظلمون أنفسهم فنالوا جزاءهم وأخذوا عقابهم. لقد كانت الحال الأشدّ سوءاً، في الدّنيا بالخزي، وفي الآخرة بدخول جهنّم، هي عاقبة الّذين أساءوا العمل في الحياة الدّنيا، لأنّهم كانوا يكذّبون بآيات الله تعالى، ويستهزئون بها، ويسخرون منها.

إنّ على كفّار مكّة أن يعتبروا بما حلّ بالمكذّبين السّابقين وإلاّ كانت العاقبة وخيمة كعاقبة السّابقين..

(٢)
(ثواب المؤمنين يوم القيامة وعقاب الكافرين فسبّحوا بحمد ربّكم الّذى إليه تُرْجَعون)
الآيات (١١ ـ ١٩)

ٱللَّهُ

يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ
شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ
فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يبلس المجرمون: ييأسون ويندمون ويسكتون لانقطاع حجّتهم(١) ويحزنون من شدّة اليأس(٢).

في روضة: في محاسن الجنّة وملاذّها(٣) والرّوضة: الأرض ذات الخضرة، والبستان الحسن، والموضع يجتمع إليه الماء يكثر نبته(٤).

يحبرون: يسرّون ويلذّذون بالسّماع وطيب العيش الهنيّ(٥).

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢١/ ١٨ وتفسير ابن كثير ٦/ ٣١٣ ولسان العرب: «بلس» والجلالين.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «بلس» ١/ ٧٦

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «روض» ١/ ٢٧٤

(٤) انظر لسان العرب: «روض»

(٥) تفسير الطّبري ٢١/ ١٩ وانظر لسان العرب: «حبر»

الله سبحانه وتعالى هو الّذي يبدأ الخلق ويبدعه على غير مثال سابق، ثمّ يعيده يوم القيامة ثمّ إليه نرجع جميعاً لفصل الحساب والجزاء، الثّواب في حقّ المؤمنين، العقاب في حقّ الكافرين.

ويوم القيامة يسكت المجرمون لانقطاع حجّتهم ويحتارون ويندمون بعد فوات الأوان ويحزنون وييأسون من كلّ خير. ولم يكن لهم آنذاك من الشّركاء الّذين عبدوهم مع الله تعالى من شفعاء فيشفعوا لهم بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه، وكانوا هم بالّذين أشركوهم مع الله تعالى في العبادة كافرين، ومنهم متبرّئين، على غرار كفر المعبودين بالعابدين وتبرّؤهم منهم. وهذه المعاني تذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة البقرة(١) : ﴿إذ تبرّأ الّذين اتُّبِعوا من الّذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب. وقال الّذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّةً فنتبرّأ منهم كما تبرّءوا منّا. كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

ويوم القيامة يتفرّق النّاس فمنهم من يأخذ كتاب أعماله بيمينه ويؤخذ به ذات اليمين إلى الجنّة وهم المؤمنون. ومنهم من يأخذ كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره ويؤخذ به ذات الشّمال إلى النّار وهم الكافرون. فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات بمقياس الإسلام وأرادوا بها وجه ربّهم الأعلى فهم في روضةٍ من الجنّة حيث الخُضْرةُ والأنهار المتدفّقة وما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ به الأعين من النّعيم المقيم يُسَرّون وينعمون. وأمّا الّذين كفروا بآيات الله تعالى وبيوم القيامة فأولئك في العذاب مُحضرون، الأغلال في أعناقهم والسّلاسل في أرجلهم منها يُسْحبون.

(١) الآيتان ١٦٦ و١٦٧

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

سبحوا الله تعالى أيّها النّاس بقول : سبحان الله، ونزّهوه عزّ وجلّ عن كلّ ما ألحقه به جلّ وعلا الظّالمون، حين تصلّون صلاة المغرب والعشاء مساء، وحين تصلّون صلاة الفجر صباحاً، وفي غير الصّلاة وفي كلّ الأوقات. وقولوا كذلك الحمد لله تعالى، للمناسبة بين التّسبيح والتّحميد وقول سبحان الله والحمد لله، فللّه تعالى وحده لا شريك له الحمد كاملاً في السّماوات والأرض، فكلّ من في السّماوات والأرض يسبّح بحمده عزّ وجلّ ولكنّا لا نفقه تسبيحهم، فلنسبّح الله تعالى ولْنحمده ولْنتناغم مع الكون كلّه المسبّح الحامد. وكما يكون التّسبيح والتّحميد في صلوات المغرب والعشاء والفجر الجهريّة يكون في صلاة العصر بالعشيّ وفي صلاة الظّهر السّرّيّتين. وهكذا يكون التّسبيح والتّحميد في الصّلوات وفي غيرها وفي كلّ الأوقات.

وكيف يستبعد النّاس عودتهم إلى الحياة مرّةً أخرى يوم القيامة وهم يرون في حياتهم الدّنيا العديد من هذه المظاهر دليلاً على قدرة الله تعالى المطلقة. وإلى هذه المعاني أومأت الآية الكريمة التّالية.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى يخرج الحي من الميّت كالإنسان من النّطفة، والنّبتة من الحبّة، والشّجرة من النّواة، والدّجاجة من البيضة، ويخرج الميّت من الحيّ كالنّطفة من الإنسان، والحبّة من النّبتة، والنّواة من الشّجرة، والبيضة من الدّجاجة. والله تعالى يحيى الأرض بالماء فتربو وتنبت من كلّ زوجٍ بهيج بعد موتها بالجدب. إنّ إحياء الله تعالى الأرض الميتة بالماء أقرب دليلٍ على إحياء الله تعالى الخلائق يوم القيامة الّذين يخرجون من الأرض وينبتون كما يخرج الزّرع من الأرض وينبت. وقد نصّت الآية الكريمة على هذا الدّليل. وبذلك نكون أمام مظاهر من قدرة الله تعالى على إخراج الميّت من الحيّ وإخراج الحيّ من الميّت، وكذلك كنّا أمواتاً في هيئة النّطف، ثمّ أحياء منذ نفخ الرّوح في الأرحام، ثم يميتنا الله تعالى، ثمّ يحيينا يوم القيامة.

وهكذا يتبيّن أنّ ما ينكره الكافرون من البعث ويستبعدونه يعيشونه في الحقيقة آناء اللّيل وأطراف النّهار، ولكنّ قلوب القوم الّتي في صدورهم عميت والعياذ بالله.

جاء في سورة الحج(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج. ذلك بأنّ الله هو الحقُّ وأنّه يحيى الموتى وأنّه على كلّ شيءٍ قدير. وأنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور﴾ وجاء في سورة البقرة(٢) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه تُرجعون﴾.

---

(١) الآيات ٥ ـ ٧

(٢) الآية ٢٨

(٣)

(بعض آيات الله تعالى الدّالّة على القدرة المطلقة على البدء والإعادة فأفردوا الله تعالى بالعبادة وعليكم بالجماعة)

الآيات (٢٠ ـ ٣٢)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ومن آيات الله تعالى الدالّة على قدرته المطلقة وأنّه إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون، ومن ذلك إعادة الحياة إلى الخلائق يوم القيامة، أنّ الله سبحانه وتعالى خلقنا من تراب أساساً، وذلك حينما خلق أبانا آدم عليه السلام من طين. وخلق الله تعالى أمّنا حوّاء عليها السلام من ضِلَعِ آدم ليه السلام الأقصر الأيسر فيما يقال(١) ومن آدم وحوّاء عليهما السلام أوجد عزّ وجلّ رجالاً كثيراً ونساءً، إذا هم بشرٌ ينتشرون في أرض الله تعالى الواسعة العريضة. وبذلك يكون آدم عليه السلام، الّذي خُلِق من تراب، قد أوجده الله تعالى من دون أبوين، وكأنّ حوّاء عليها السلام الّتي خُلِقَتْ من ضلع آدم عليه السلام قد أوجدها الله تعالى من ذكرٍ ولا أنثى، وكأنّ عيسى عليه الصّلاة والسلام قد أوجده الله تعالى من أنثى ولا ذكر. أمّا سائر البشر فقد أوجدهم الله تعالى من ذكرٍ وأنثى. وهذه هي الصّور الأربع الّتي أوجد الله تعالى جميع النّاس عن طريقها.

---

(١)انظر ـ مثلاً ـ تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٥

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

وكذلك من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا أن خلق لنا نحن الرّجال من أنفسنا أزواجاً، ومن جنسنا نحن البشر نساءً، ليسكن الزّوج إلى زوجه ويطمئنّ الذّكر إلى أنثاه. والعكس صحيحٌ بطبيعة الحال، فقد جعل عزّ وجلّ كلاًّ من الزّوجين سكناً للآخر ولباساً. وبإرادة الله تعالى لا تقف علاقة الزّوج بزوجه عند اتّصالٍ ينقضي بانقضاء دواعيه، ولا تنتهي بقضاء الوطر وإشباع الغريزة. إنّ ما بين الزّوجين يتجاوز تلك الحدود الطّبيعيّة ويتخطّى تلك العلاقات الضّروريّة إلى ما نصّت عليه الآية الكريمة. لقد جعل الله تعالى بين الزّوجين مودّةً ومحبّة، رحمةً ورأفة(١).

وما القدر من الاهتمام الّذي يشغله إفضاء كلّ من الزّوجين إلى الآخر بالقياس إلى ما يشغل بال كلٍّ من الزّوجين من حرصٍ على مصلحة الآخر، ومراعاةٍ لشعوره، وتحقيقٍ لرغباته، وعملٍ دائب، وتفكيرٍ دائمٍ في كلّ ما فيه خير الأسرة والذّرّيّة. إنّ الحجم كنسبة النّقير أو القطمير أو الفتيل إلى النّواة(٢).

إنّ في حقيقة العلاقة الحميمة بين الزّوجين وأبعاد المحبّة والرّأفة لآياتٍ دالاّتٍ

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٥

(٢) النّقير النُّقرة والنّقطة في ظهر النّواة. والقطمير القشرة الرّقيقة على النّواة كاللّفافة لها. والفتيل: الخيط الّذي في شقّ النّواة.

على قدرة الله تعالى المطلقة لقومٍ يتفكّرون ويتدبّرون ويتأمّلون.

ومِنْ أقرب ما يفكّر فيه أولو الألباب بين الزّوجين المقارنة السّاذجة بين عدد السّنوات الّتي تقضيها الفتاة في بيت أبيها وبين عدد السَّنوات الّتي تقضيها في غرفة زوجها! إنّا حينما نتحدّث عن الزّواج السّويّ والأناس الأسوياء نتبيّن أنّه لا مجال للمقارنة. إنّ الأمور حينما تسير بفضل الله تعالى على ما يرام، والحياة حينما تطول بإذن الله تعالى بالزّوجين معاً، يكون ثمّة تفوقٌ واضحٌ في الفترة الزّمنيّة لصالح عشّ الزّوجيّة.

وإنّ هذه النّعم العظيمة الّتي لا تحصى والآلاء الجسيمة الّتي لا تُعَدّ، توجب على كلٍّ من الزّوجين الشّكر لله تعالى كي تدوم النّعم وتزداد. أمّا إذا كان كفرانٌ للنّعم، لا سمح الله تعالى، من أحد الزّوجين أو كليهما، فإنّ العاقبة، والعياذ بالله تعالى، وخيمة. والمعروف أنّ النّعم حينما تزول لا تكاد تئول. نسأل الله تعالى أنّ يلهمنا الرّشد أجمعين.

وإنّ هذه مناسبةٌ مباركةٌ كي تُهْمَسَ بضع كلمات في آذان الأزواج على جهة الخصوص، لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل لهم القِوامة. إنّ عليك أيّها الزّوج أن تدرك أنّك بفضل الله تعالى وحده لا شريك له قد وجدت زوجتك في عصمتك. إنّه لولا فضل الله تعالى عليك لكان اصطياد أيّ طائرٍ في جوّ السّماء وأيّ سمكة في أعماق الماء أهون من الحصول على زوجة هي قرّة أعين والديها وذويها. وألطف ما في الأمر أنّ المرأة لا تصلح حياتها إلاّ مع زوجها وفي بيت الزّوجيّة والأسرة. إنّ عليك أيّها الزّوج أنّ تراقب الله تعالى فيما منحك من نعم وخصّك من آلاء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وكذلك من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا خلق السّماوات والأرض وإبداعهما على غير مثالٍ سابق، ورفعهما في الفضاء بيد القدرة الإلهيّة بغير عَمَدٍ مرئيّةٍ وغير مرئيّة. ومعروفٌ أنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس بنصّ القرآن الكريم(١).

وإنّ الطّباق بين السّماوات والأرض الدّالّ على الاختلاف بينهما فالسّماوات مرفوعة، والأرض مخفوضة، رشّح لحديث الآية الكريمة للاختلاف بين النّاس في الألسنة والألوان مع أنّهم جميعاً أبناء أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة. وقد تقدّم ذكر الألسنة على الألوان لأن اختلاف الألسنة أكثر من اختلاف الألوان. ومن ألطف ما يمكن الإشارة إليه بشأن اختلاف الألسنة أن في بعض المدن في شبه القارّة الهنديّة يتكلّم أصحاب أحد جانبي الشّارع الواحد لغة، ويتكلّم أصحاب الجانب الآخر لغةً أخرى مباينة! ويستطيع أصحاب كلّ لسانٍ أن يبينوا عمّا في نفوسهم وضمائرهم وعقولهم لأنّ الله سبحانه وتعالى علّم الإنسان البيان. ومن ألطف ما يمكن الإشارة إليه بشأن اختلاف الألوان أنّ المسلمين حينما فتحوا الأندلس كان في الجيش مجاهدٌ واحدٌ أسمر، وحينما رآه سكّان تلك البلاد الّذين يميل لون بشرتهم إلى البياض أو الصّفرة ظنّوه شخصاً مصبوغاً لون جسده بالسّواد!(٢).

إنّ في اختلاف السّماوات والأرض، وفي اختلاف ألسنة النّاس وألوانهم

---

(١)سورة غافر ٥٧

(٢) انظر نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب ١/ ٢٦٢ تحقيق الدّكتور إحسان عبّاس دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م

لآيات دالآت على قـدرة الله تعالى المطلـقة للعالمين الّـذين نوّر الله تعالى قـلوبهم وعقولَهم بالعلم النافع. وقد قال عزّ من قائل[1] ﴿قل هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون. إنّما يتذكّر أولو الألباب﴾.

---

(١) سورة الزّمر٩

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وكذلك من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا، منامنا نحن البشر باللّيل والنّهار، وابتغاؤنا من فضل الله تعالى والسّعي وراء لقمة العيش بالنّهاروالّليل. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون آيات الله تعالى سماع تدبّر ووعي.

وممّا يلاحظ على إعجاز الآية الكريمة أمورٌ منها:

١ - يجيء في الآية الكريمة ذكر اللّيل والنّهار والإيماء إلى النّوم وهو سكونٌ وراحة، وإلى الابتغاء من فضل الله تعالى وهو عملٌ وسياحة، وذلك الاختلاف في الصّفات امتدادٌ للاختلاف في الألسنة والألوان، والأرض والسماوات، وما إلى ذلك.

٢ - يتقدّم الحديث عن المنام باللّيل، وذلك هو الأصل، هذا إلى أنّ الظّلام هو الأصل، والنّهار طاريءٌ عليه، ويتأخّر الحديث عن المنام في النّهار، وتلك هي طبيعة الأشياء، فقد جعل الله تعالى اللّيل لباساً، وجعل النّهار معاشاً.

٣ - يتأخّر الحديث بشأنّ ابتغاء الفضل من الله تعالى بعد ذكر النّهار، إيماءً إلى أنّ طلب الرّزق في النّهار هو الغالب، ولا يمتنع في حقّ بعضهم طلب الرّزق في اللّيل، كما لا يمتنع النّوم في النّهار. وتلك القلّة الّتي تعمل ليلاً هي القلّة الّتي تنام نهاراً. وكأنّنا في الحقيقةأمام ما يسمّى بالمقابلة بين النّوم الغالب ليلاً، وطلب الرّزق الغالب نهاراً. وكلّ ذلك معمّقٌ لحديث الآيات الكريمات في الصّفات المتقابلات.

٤ - لمّا كانت الآية الكريمة قد ابتدأت بالحديث عن المنام الّذي يكون باللّيل

أساساً جاء التّذييل منبّهاً على حاسّة السّمع الّتي تعمل في الظّلام وذلك في القول : ﴿إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون﴾ ولمّا كانت حاسّة السّمع تعمل في الظّلام، وكان التّذييل يهدف إلى التّنبيه إلى أنّ الأذن ينبغي أنّ تكون واعية وليس سامعة فقط، فكأنّ التّذييل بمراعاته المنام باللّيل وذلك بالنّصّ على السّماع الواعي قد نبّه على مستويي عمل حاسّة السّمع، أعنى الأذن، إنّهما السّماع المجرّد، والسّماع الواعى بحضور العقل وشهادة القلب. ما أكثر الآيات والعبر والدّروس الّتي تستفاد من كلّ آيةٍ من آي الذّكر الحكيم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وكذلك من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا أنّه عزّ وجلّ يرينا البرق الدّالّ بإذنه تعالى على احتمال نزول المطر خوفاً من المطر حينما لا نكون مستعدّين لاستقباله، كأن نكون على سفر أو لدينا منه ما يفيض عن حاجتنا ونخشى الطّوفان أو الغرق وما إلى ذلك، وطمعاً في المطر حينما تكون حاجتنا شديدةً له، ونكون مستعدّين لاستقباله.

ولمّا كان الهدف من لفت الانتباه إلى كلّ هذه المظاهر من قدرة الله تعالي المطلقة حمل النّاس على الإيمان بالبعث والتصديق بالحياة يوم القيامة بعد الموت في الدّنيا كان في الآية الكريمة نصٌّ على إنزال الله تعالى الماء من السّماء فيحيى عزّ وجلّ به الأرض بعد موتها. إنّ الخلائق يعودون إلى الحياة يوم القيامة وينبتون كما بنبيت الزّرع في الأرض الّتي كانت ميتةً بالجفاف فأحياها عزّ وجلّ بالمطر.

إنّ في إراءتنا البرق خوفاً وطمعاً وإنزال الماء الّذي يحيي الأرض الميتة وإرسال الغيث من السّماء لآيات دالأتٍ على قدرة الله تعالى المطلقة لقومٍ يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً.

وامتداداً للطّباق والمعاني المختلفة في الآيات الكريمات السّابقات نتبيّن هنا الخوف والطّمع، السّماء والأرض، الإحياء والإماته.

ووراء التّناغم معنوياً بين صدر الآية الكريمة وعجزها ثمّة تناغمٌ صوتيٌّ. إنّ البرق محور الحديث في الصّدر، وإنّ العقل محور الحديث في العجز، وإنّ حرف القاف شركةٌ بين المحورين، وهو حليةٌ صوتيّة إضافيّة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وكذلك من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا أن تقوم السّماء والأرض بأمره عزّ وجلّ، وتسيرا في الخطّ المقدّر لهما المضبوط منذ الأزل، بيد القدرة الإلهيّة، إلى ما شاء الله تعالى، وأن تظلاّ في مكانيهما، وفي مساريهما، فلا اضطراب ولا اختلال، بل هنالك الانضباط والانتظام. وما أكثر ما يمكن أن يقال في طاعة السّماوات والأرض لله تعالى الواحد القهّار.

إنّ الأرض الّتي نحيا عليها كوكبٌ لا يكاد يقاس حجماً بما لا حصر له من الكواكب والنّجوم والمجرّات وما إلى ذلك. وممّا يقول علماء الفلك إنّ الكون يتّسع بأسرع من سرعة الضّوء! وإنّ احتمال اصطدام ذبابتين، تنطلق إحداهما، على سبيل الافتراض، من المشرق وأخراهما من المغرب، إنّ احتمال اصطدام هاتين الذّبابيتين ببعضهما، أكثر من احتمال اصطدام كوكبين أو نجمين أو نحوهما من بين ملايين العناصر السّماويّة الّتي تسبح في الفضاء، وتسيّرها العناية الإلهيّة. وممّا قال علماء الفلك إنّ المراصد الجوّيّة الّتي توزَّع فيها الثّانية على آلاف الجزئيّات والّتي بلغت شاواً بعيداً من الدّقّة والانضباط، يحتاج العلماء إلى ضبطها كلّ حينٍ، بربطها ببعض هذه العناصر الّتي تسبح بيد القدرة الإلهيّة في الفضاء، مِنْ شمسٍ وقمرٍ وما إليهما.

وإليك بعض ما جاء في القرآن الكريم ممّا له علاقة بهذه المعاني العجيبة. جاء في سورة الحجّ(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في

(١) الآية ٦٥

الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه. إنّ الله بالنّاس لرؤوفٌ رحيم﴾ وجاء في سورة فاطر(١) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إنّ الله يمسك السّماوات والأرض أن نزولا. ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده. إنه كان حليماً غفورا﴾.

والشّقّ الآخر من الآية الكريمة يتعلّق بالبعث والنّشور وعودة الحياة إلى الخلائق يوم القيامة. وقد تبيّنّا أنّ السّورة الكريمة تلحّ على هذا المعنى كثيراً. إنّ الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى إذا دعانا يوم القيامة من الأرض إذا نحن خارجون امتثالاً لدعوته وإذعاناً لمشيئته ولا نملك إلاّ أن نسبّح بحمده عزّ وجلّ. جاء عن يوم القيامة قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الإسراء(٢) : ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتم إلاّ قليلا﴾.

---

(١) الآية ٤١

(٢) الآية ٥٢

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾

ولله تعالى كلّ من في السّماوات والأرض وكلّ ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ، كلٌّ له خاضعٌ ومطيع. أمّا المؤمنون فإنّهم يخضعون ويطيعون طوعاً، وأمّا الكافرون فإنّهم يخضعون ويطيعون كرهاً. والجزئيّة الكريمة : ﴿كلٌّ له قانتون﴾ تذكّر بمثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الرّعد[1] : ﴿ولله يسجد من في السّماوات والأرض طوعاً وكَرْهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال﴾.

(١) الآية ١٥

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

الله تعالى وحده لا شريك له هو الّذي بدأ الخلق وأوجد النّاس على غير مثال سابق، ثمّ يوم القيامة يعيد خلفهم ويبعثهم للحساب والجزاء. وهذا الخلق الثّاني للناس أهون على الله تعالى من الخلق الأوّل وأيسر، بلغة المخاطبين الّذين يعتقدون أن إعادة العمل أيسر من إيجاده ابتداءً من العدم. أمّا في حقّ الذّات العليّة فإنّ العملين في اليسر والسّهولة سواء.

وإنّ مراعاة حال البشر الّذين يسهل عليهم إعادة العمل في القول: ﴿وهو أهون عليه﴾ بقصد حملهم على الإيمان بالبعث يوم القيامة إذ كيف يسهل عليهم إعادة العمل ويستنكرون إعادة الله تعالى الحياة إليهم وهو الّذي أحياهم أوّل مرّة، إنّ مراعاة حال البشر هنا أعقبه القول الّذي يفيد أنّ الله تعالى لا إله غيره، ولا معبود بحقّ سواه، وأنّه عزّ وجلّ ليس كمثله شيء: ﴿وله المثل الأعلى في السّماوات والأرض﴾ إنّه في عُرْفكم أيّها النّاس وفي اعتقادكم أن إعادة العمل أهون من إبداعه، وإنّه في حقّ الذّات العليّة يستوى الإبداع والإعادة. فعليكم أيّها النّاس أن تعلموا الحدود الّتي تقف عندها قدرة المخلوقين المقهورين، وأن تدركوا القدرة المطلقة لله تعالى الواحد الّذي لا إله إلا هو، اللّطيف الخبير الّذي ليس كمثله شيء، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه وتقديره وتدبيره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أوّلُ الخلق بأهونَ عليّ من إعادته. وأمّا شتمه إيّاي فقوله: اتّخذ الله ولداً وأنا الأحد الصّمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد(١).

---

(١) فتح البارى ٨/ ٧٣٩ حديث رقم ٤٩٧٤